# الثورة الرابعة تتحقق

كنا على هذا النحو العلمي المأمول نفكر، وكان الرئيس جمال على نحوه العملي الواقعي يدبر، فرأى كما رأى المصلحون من قبل، أن العالم لا يصلح إلا بالدين، وأن الدين لا يتجدد إلا بالأزهر، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة، تنشأ من قواه وتقوم على مزايا وتتغلغل في أصوله. ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره.

ثم رأى كما رأى المصلحون من قبل أن خمسة وأربعين ألفا من شباب الأمة في الأزهر، فيهم مواهب وعليهم تكاليف ولهم مستقبل، فمن حقهم أن يتعلموا ليعيشوا ما دام الإسلام لا يتبنى الرهبان ولا يتبنى الأديرة. ولن يستطيعوا أن يعيشوا إلا إذا نزعوا بأنفسهم عن معرة التخلف، وشاركوا في علوم الحضارة وسايروا عقلية العصر وأرادوا الدين للدنيا وطلبوا العلم للحياة، ثم وضع على أساس ما رأى وعلم قانون الأزهر الجديد فجعل به الجامع جامعة، والدين سبيلا، والعلم دليلا، والعلماء قادة. ثم مكن له بإنشاء المجمع العلمي للبحوث الإسلامية أن يحرر العقل من التقليد الأعمى والتسليم العاجز، وأن يطهر السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة؛ وأن يطور الشريعة في حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول؛ وأن ينقي العقيدة من المذاهب الباطلة والبدع الضارة، وأن ينشر الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم.

ثم أتاح له بما أضاف إلى كلياته الإسلامية والعربية كليات مدينة أخرى للمعاملات والإدارة والهندسة والصناعات والزراعات والطب أن يسند بيد الله أيدي العاملين في بناء المجتمع الصالح، ويشارك بتقوى الله في تفريج أزمة الضمير؛ فيخرج العالم المجتهد الذي يجعل من فقه رسالة ومن بيانه دعوة، والطبيب الذي يجعل من عيادته ومن مرضاه إخوة، والمهندس التقي الذي يجعل من عمله جهاداً ومن خلقه قدوة، والموظف المتدين الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة. وهذا هو

الإصلاح الجوهري الشامل الذي تمنى بعضه أئمة الأزهر الأربعة المصلحون من الإمام محمد عبده، إلى الإمام محمود شلتوت، فلم يجدوا من الحكم والسلطان سبيلا إليه ولا معينا عليه، وكأن الله رب الأزهر قد ادخر نعمة تحقيقه لرئيس الدولة جمال، ونعمة تطبيقه لشيخ الأزهر شلتوت. ذاك لإخلاصه وصدقه وجهاده، وهذا لعلمه وورعه واجتهاده، وهما نعمتان سيكون لهما في تاريخ الإسلام شأن أي شأن، وفي مستقل العروبة أثر أي أثر. وستكون مشيخة شلتوت للأزهر عنوانا بارزا في تاريخه، يفصل بين ماض كان محدود الأفق محصور المجال لا يجد أهله ميسور الرزق ولا موفور الكرامة، وحاضر سيكون رحب الجوانب واسع المضطرب يتمتع فيه أبناؤه بالمساواة في الحق والواجب، ويتكرم به علماؤه بالمشاركة في الخدمة والإنتاج. يندمجون في الشعب ولا يعيشون على هامشه، ويتغلغلون في البيت ولا يقفون ببابه، ويتقدمون الركب ولا يسرون في ساقته.

لم يعد المصلحين ما يرجونه، ولا للأزهريين ما يشكونه. لقد ظفروا لجامعتهم لخالدة في يوم وليلة بما طالما استرسلوا بآمالهم إليه وحاموا بنفوسهم عليه: ظفروا بالأصل الذي يرسوا في أعماق الغابر، وبالفرع الذي يتشعب في آفاق الحاضر؛ بالقديم الذي يحفظ التراث فلا يتبدد، وبالجديد الذي ينمي الموروث فلا يتضاءل.

لم يبق إلا أن يثبت الأزهريون – وسيثبتون على ما أعتقد – أنهم أجدر بهذا النظام وأذكر لهذه النعمة وأشكر على هذا الفضل. وخير الذكر والشكر ما صدر عن يقين وورد على فعل. والقول المؤمن إذا صحبه العمل الصالح لا يدع محالا إلا أمكن؛ ولا بعيدا إلا دنا، ولا ناقصا إلا استكمل.

فنجاح هذا النظام أوله وآخره في أيديهم. هم الذين سيضعون المنهج ويؤلفون الكتاب؛ وهم الذين سينفذون القانون ويطبقون اللائحة. فإذا ساروا بالإصلاح الجديد على الخطة القديمة؛ فلم يغيروا إلا في الصور، ولم يبدلوا إلا في العناوين، كان قانون الأزهر بين أيديهم أشبه بدستور ما قبل الثورة بين الأحزاب: جمع أحدث الآراء من دساتير الأمم ثم كان بين حقيقة وضعه وباطل تطبيقه كالمصحف في بيت الزنديق، أو كالمصباح في غرفة الأعمى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

إن قصارى ما أقوله اليوم في هذا التطوير الشامل الكامل للأزهر أنه يحقق ما تمنيناه وتمناه معنا المخلصون لدين الله ولغة كتابه وسنة نبيه وفقه شريعته: به يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك في جديد الناس. وبه تمحى الفوارق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب. وبه تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويسهم الأزهر في شركة المدنية وقيادة العالم.